أنماط القلق السياسي في الشعر الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة (92-422هـ)

أ.م.د. هادي طالب العجيلي الباحثة: زينب علي صادق علوش

كلية التربية للعلوم الانسانية/ جامعة بابل

Patterns of political anxiety in the Andalusian poetry from the split to the falloff the caliphate (92-422H

Ass. Prof. Dr. Hadi Taleb Al-Ajili

hadi1965@gmail.com

Researcher. Zaineb Ali Sadek Alloush

zainebalwash1994@gmail.com

College of Education for Human Sciences\ University of Babylon

Abstract:

Anxiety is the supreme feelings and emotions that affect human being and they have powerful motive to face the obscure indefinite. This is the first weapon which is helped Arabs when they enter the Andaluz, but this weapon is double-edged, either to push them to salvation and ingeniousness. This will motivate their wish and activate their enthusiasm, or push them to wards pessimism, discontent and sickness. In a society, like Andalusian souety in any new and substitution land this variety in nationality and race. For this, the Andalusian feels, anxiety in his soul and heart. This anxiety goes and stays with him. This becomes his sense, which can feel and know positive or negative things. Therefore, anxiety is his way to test things. In addition, this will not let him feel completely tranquility and rest but restlessness is one of the elements, which keeps his behavior with things stays like this along the era of conquest, and prefecture there were periods of stability in Andaluz during the era of Arab empire. The many wars, the tale bearing, political envy and has the content of the governor; all these make the poet not away from all these problems, which affect his political position and make him worry. For this political worriness in his poems through. Variety of his feelings according to what he thinks of his political fate, or to be worry of prison. For first, his worriness and then when he enters the prison he becomes worry of sickness, being old to be forgotten and the departure from his family or this may exceed this or that to war and fighting and then death or being homeless and being a beggar in other ways.

These kinds are found in Andalusian poetry and in this period. Therefore, we will attempt to analyze the motives and their effects in their verse. For this, we divided political concern patterns to:

-Anxiety of political fate.

-Anxiety of prison.

-Anxiety of wars.

Key words: Anxiety, prison, war, politic, Andalusian poetry.

الملخص:

يعد القلق من أبرز المشاعر والعواطف التي تنتاب الإنسان، ودافعاً لا يُستهان به في مواجهة المجهول، وبذا كان السلاح الأول الذي استعان به العرب عند دخولهم الأندلس لكن هذا السلاح ذو حدين فإما يدفع صاحبه إلى النجاة والإبداع فيحفز إرادته وينشط حماسه، أو يدفعه للتشاؤم والسخط والمرض، وفي مجتمع جديد كالمجتمع الأندلسي، وهو في أرض بديلة جديدة وفي تنوع في الأجناس والأعراق. لابدَّ أن يحمل الأندلسي قلقه في روحه وبين أضلعه، فظلَّ ملازماً له لا يفارقه، وأصبح الحسية التي من خلالها يتعرف على الأشياء إيجاباً وسلباً، فالقلق طريقة ليختبر بها الأشياء. لا يدعي لنفسه الطمأنينة الثابتة الكاملة والارتياح بل كان الإرتياب عاملاً من عوامل تعامله وسلوكه مع الأشياء ظلَّ هكذا طيلة عهد الفتح والولاية وحتى حينما استقر بأقوى عصور الأندلس في عهد الإمارة والخلافة، فإنَّ الحروب الكثيرة المستعرة والوشاية والحسد السياسي والتقرب إلى الولاة جعل الشاعر ليس بمأمن من هذه الآفات

التي تطيح بمكانته السياسية فبات قلقاً، لذلك تجسد القلق السياسي في شعره عبر تنوع هذا الشعور وفق ما يفكر فيه من مصير سياسي أو القلق من السجن، وهنا قلقان: خارجي قبل دخول السجن، وقلق داخلي بعد دخول السجن، فالأول مجرد دخوله السجن هو قلق ثابت، فإن دخل السجن بات يقلق من المرض والكبر والنسيان وفراق الأهل و... أو يتعدى الأمر هذا وذاك فقد يقلق من اشتعال الحرب وبالتالي الموت والتشرد والتصعلك في آفاق أخرى. هذه الأنماط وجدناها في شعر الأندلسيين، وهذه الحقبة الأندلسية لذا سنحاول تحليل دوافعها وتجلياتها في أبياتهم الشعرية، ولذا قسمنا أنماط القلق السياسي الى:

- القلق من المصير السياسي.
- القلق من السجن.
- القلق من الحروب.

الكلمات المفتاحية: القلق، السجن، الحرب، السياسة، الشعر الأندلسي.

القلق السياسي في الشعر الأندلسي:

عصفت الكثير من الفتن في أحوال الدولة العربية الإسلامية في الأندلس، كما نعمت في فترات بالاستقرار والهدوء، ولكن الاضطرابات وحالة اللا استقرار السياسي كانت سمته الغالبة، فكثرة الحروب واتساع الثورات وتفاقم الأزمات كان من أسباب أرتباك الوضع السياسي آنذاك لاسيما في عهد الدولة الأموية، فمجتمع الدولة قد بدأت فيه الانشقاقات الأثنية فهو(مجتمع مفكك مقسم، فيه عرب وفيه بربر، وفيه اسبان ومسلمون وغير مسلمين، ثم تصورناه قبل ذلك مجتمعاً لا استقرار فيه ولا هدوء فهو بين جيوش تسير وثورات تشب، وكل هذا من شأنه أن يصيب المجتمع بأنواع من الاضطراب الحسي والنفسي) [1] زد على ذلك أسباب تعود إلى طبيعة الحكم الأموي وسياسته الدموية مما عجل في الإطاحة بدولتهم وسقوطها، فعدم الثبات على الولاية وتوارد الولاة والعزل يولد مجتمعاً متأرجحاً بين السلام والحرب والخلافات، وهذا ما قلق منه الرمادي، حين قال [2]:

يولي ويعزل من يومه فلا ذا يتم ولا ذا يتم

لقد أوجد هذا الوضع السياسي السيء المناوئين الذين تعرضوا للأوضاع السياسية بالنقد والمعارضة للملوك والسلاطين، فالشعب الذي ظُلِم وعانى أعلن سخطه عليهم وعلى سياستهم، وبغضه لرجالهم والثورة عليهم، مما أشاع القلق والخوف والاضطراب لاسيما بين أفراد الطبقة السياسية كون كل فرد منهم يستغل سلطته وقوته للإطاحة بالآخرين وبالتالي يمكن تقسيم أنماط القلق السياسي إلى ثلاث أنماط، هي:

أولاً: القلق من المصير السياسي:

عاش المجتمع الأندلسي فترات صعبة ومشكلات عصيبة وظروف معقدة فكان (لابد لمثل هذه الظروف والأحداث والمصائب أن تترك آثارها في أعماق نفوس الأندلسيين وتولد لديهم حالة من القلق وشعوراً سوداوياً بالاضطهاد والتهديد الدائمين) [3] مما أدى الى أثارة قلق الأندلسيين مما هو قادم –المستقبل المجهول والمصير القاتم أو الغامض – الذي بات رعباً فأقلقهم الزمن وتقلبه والدهر ونوائبه، ولعل أغلب الشعراء الذين يعانون هذا النوع من القلق هم الشعراء السياسيين وفي طليعتهم الحكام الشعراء الذين يخشون زوال سلطانهم، وأولهم عبد الرحمن الداخل* حين قال[4]:

إنَّ الملُوكَ مَع الزَّمانِ كَوَاكِبُ نَجمٌ يُطالِعُنا ونَجمٌ آفِلُ

(1) الأدب الأندلسي من الفتح الى سقوط الخلافة، أحمد هيكل، دار المعارف، ط9، 1985، ص: 60

(2) شعر الرمادي يوسف بن هارون، تح: ماهر زهير جرار، ط1، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1980، ص:118

(3) ضجيج الشعر الأندلسي، دراسة في أنماط تمرده الموضوعية ومبانيه الفنية، د. محمود شاكر محمود، دار غيداء، الأردن، 2018م، ط1، ص78.

* هو عبد الرحمن الداخل بن هشام بن عبد الملك بن مروان: ولد سنة (113هـ)، وهو الداخل إلى الأندلس لقبه أبو جعفر المنصور بـ (صقر قريش)، هزم والي الأندلس يوسف الفهري سنة (138هـ)، حكم الأندلس (32) سنة وتوفي سنة (172هـ)، كان من أهل التدبير والحزم، محارباً، أديباً. ينظر: نفح الطيب:328/1-329.

(4) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المقري، تح: احسان عباس، بيروت، دار صادر، 1997م: 43/3؛ الأدب الأندلسي من الفتح الى سقوط غرناطة، منجد مصطفى بهجت، ط2، دار الياقوت، عمان، 2006م، ص:65

وَالحَزمِ كُلَّ الحَزم ألاّ يَغفِلُــوا أَيَرُوم تَدبِيرِ البَرِيةِ غَافِلُ

فالحكمة الواقعية التي أدركها الشاعر الداخل جعلته يعيش قلقاً؛ لأنه لابدَ من أن يدركه الأفول كما أدركه الطلوع ومصدات القلق هي الحزم والتدبير وعدم الغفلة، فهذه الثنائية (الطلوع /الأفول) تظهر قلق الشاعر وخوفه من زوال حكمه وسلطانه، وقد بَرَّز الاستفهام الاستنكاري في البيت الأخير الذي خرج بمعنى النفي (لا يروم...) قلقاً أكبر يتمثل بخوفه من غضب رعاياه وانقلابهم عليه كونه رجلاً حازماً قوياً لذا لجأ الى التبرير لكسب ودهم. وقد تناسب موضوع المقطوعة مع البحر الذي أتت عليه وهو بحر الكامل الذي يتميز بكونه (إلى الشدة أقرب منه إلى الرقة)[1] فقد ساهم هذا البحر في إظهار قوة الشاعر وحزمِهِ المشوب بقلقه، ومن الذين عانوا القلق على ملكهم الحكم الربضي، حين يخاطب متغزلاً من يخشاهنَّ لا خوفاً وإنما أراد بأخذه الهوى ومساربه فيطيح به بيد أنه يشغله عن حكمه قال[2]:

مَـلكَنَني مُلكَ مَن ذَلّـت عَـزَائِـمَـهُ   للـحُـبِ ذُلَّ أسِـيـرٍ مُـوثَـقٍ عَــانِ

مَن لِي بِمُغتَصِباتِ الرّوحِ مِن بَدَني   يَغصِبنَني فِي الهَوى عِزّي وَسلطَاني

عمد الشاعر الى توظيف مصطلحات القلق السياسي في خطابه للآخر الغزلي من خلال الألفاظ (ذلَّت، عَزائِمه، أسير، مُغتصِبات، عِزِّي، سُلطَاني) فأبياته الغزلية ذات الرقة والاناقة والجمال تحمل في طيات ألفاظها قلقاً سياسياً، ساعدت في إبرازه القافية المكسورة لانكسار قلبه أمام مغتصبات الروح، وتكرار صوت النون مع التنوين أثنتا عشرة مرة وهو صوت ذلقي جهوري هيجاني يعبر عن الألم العميق والخشوع[3] وهو ألم العشق لا لمحبوبته فقط بل لسلطانه، وقد ساهم بحر النص البحر الطويل الذي يتميز بـ(أنه أقرب إلى الأسلوب القصصي)[4] في إيصال المعنى من خلال إعطاء الشاعر فسحة للتعبير والتصوير ومشاركة المتلقي بقلق الشاعر من خلال تفاعلاته المتباينة والطويلة، فالشاعر قد سخَّر النصَّ وكل عناصره (لإشاعته بين الناس وتقريب هذه الطبائع إلى أفئدة الناس يحدو الشعراء في ذلك فهم الناس لهم، ومن ثم تفوقهم على الآخرين في الاختيار والبقاء في السلطة، وهو ما يروم تحقيقه من ذلك)[5].

أما بالنسبة للشعراء الذين عاشوا في البلاط وعرفوا ما تخفيه جدرانه من غدر وخيانة وخداع ووشاة وألاعيب كان القلق والخوف مستقر في أفئدتهم ممتزج مع أرواحهم، وخير من يمثلهم الشاعر يحيى الغزال الذي أعطى أبيات من الحكمة يحذر فيها المتلقي من صولة الزمن وغدره ومن خلال حروفها نستشعر قلقه الضمني من هذه البيئة، إذ يقول [6]:

وإن أعُطيت سُـلـطـانـاً   فَـحَـاذِر صَـولـةَ الزَّمَـنِ

أَخو السلطان موصوف   بِحسنِ الرأيِ والـفـطَـن

فَسَاعَــةً مَـا يُـزاوِلُــه   رَمَــاهُ الـنَّــاسُ بِـالـلَـعنِ

ويصبِح رأيـه الَمحمـو   دُ مَـنـسُوبـاً إلى الأَفَــن

وتـبُصـر في مطيتـهِ   سُقُـوطَ العَـينِ والأذُنُ

كَأَنَّ بشاشـةَ السلْـطا   نِ حين تَزولُ لَم تَكُن

بهذه الأبيات وجه الشاعر تحذيراً للسلطان، ألاّ إن هذا التحذير مبني على مشاعر قلق ضمنية مما سيؤول إليه الأمر إذا صدقت نبوءة الشاعر، فالمفردة (حاذر) اختبأت في جلبابها جبال القلق من زوال ما قبلها وهي (السلطة) لأنَّ الملك لعبة غدر وخيانة

(1) فن التقطيع الشعري والقافية، صفاء خلوصي، مكتبة المثنى، بغداد، 1961م، ص:95
(2) البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ابن عذاري المراكشي، تح: ليفي بروفنسال و. د. س. كولان، بيروت، دار الثقافة، 1980م، ص:2/ 79
(3) ينظر: خصائص الحروف العربية ومعانيها، حسن عباس، منشورات اتحاد الكتاب العرب، 1998م: 160
(4) فن التقطيع الشعري والقافية، صفاء خلوصي: 44
(5) شعر حكام الأندلس (دراسة في المضمون والفن)، د. هادي طالب العجيلي، بإشراف: أ.م. د عبد العظيم رهيف السلطاني، أطروحة دكتوراه، جامعة بابل، كلية التربية صفي الدين الحلي، 2009م، ص:139
(6) ديوان يحيى بن حكم الغزال، جمعه وحققه وشرحه: محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط1، 1993م، ص 113-114

تتحالف مع الزمن وصولاته وتقلبه، ومصدر للقلق والمعاناة، لذا لجأ الشاعر الى تبديده أو تقليله من خلال الحذر والرأي والفطنة وكما يلي:

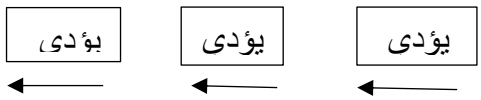

يؤدي ← يؤدي ← يؤدي ←

السلطان القلق الحذر الرأي والفطنة

ومن الشعراء من عانى تقلب الزمن وغدره، وتحول أحواله، هو الشاعر المصحفي* فبعد إن كان صاحب قوة وسلطة بات سجيناً ذليلاً، وفي ذلك يقول[1]:

الا أنَّ أيــامٌ هَفَـت بِـإمــامِـهـا لِجَـائِـرَةٌ مُشتَطة في احتكامها

فَلم يُؤلِم الدُّنيـا عِظام خِطُوبِها وَاحـدَاثُها إلاّ قِـلُوب عِظامِـها

تَأمَل فَهَـل من طَالِـعٍ غَيرَ آفِلِ لَهن وَهـل مِن قَـاعدٍ لِقِيامِـهَا

وَعَاينِ فَهَل مِن عَائِشٍ بِرِضَاعِها مِن النَّـاسِ إلاّ مَيتٌ بِفِطَامِـها

إنَّ الشاعر عبَّر عن قلقه بأبيات حكمة ناتجة عن تجربة حياتية، فالحكمة المتأتية من التفكير العميق بالحياة والتفكير العميق بحد ذاته قلقاً من اللاوعي، فهو بعد كل ما عاناه أدرك إنّ الدهر خوّان وأنه يومان يومٌ له عندما يطلع نجمه وآخر عليه عندما يأفل لينبأ بطلوع نجم غيره، فالدنيا أيام جائرة بأحكامها وسوء أفعالها بالناس، حيث ترمي المصائب عليهم وتخطف الرجال منهم وهذا ما جعل الشاعر أن يبرر قلقه في البداية ويعطي كثافة عاطفية من خلال الاستفهام المجازي الخارج بمعنى النفي في البيت الأخير لمشاعر القلق كما إنَّ ثنائية الطلوع/الأفول تنبأ بالقلق من النهاية والمصير الذي ينتظره. إنَّ ما عاناه المصحفي جعله لا يشعر إلاّ بالقلق من الزمان وغدره، والأيام ومصائبها، إذ يقول[2]:

لا تَأمِنَنَّ مِن الزَمَانِ تَقَلُّبـا إنَّ الزّمَـانُ بِأهلِــهِ يَتقَـلـبُ

وَلَقَد أراني والليُـوث تَخَــافَنِي وَأخَافَني من بَعد ذاك الثّعلَبُ

حَسبُ الكَريم مَهانــة وَمَذلـة ألا يَـزَال الى لَـئيـمٍ يَطلُـبُ

وَإذا أتت أعجوبة فاصبر لها فالدهر يأتي بعد ما هو أعجب

وعلى ما يبدو أنَّ الشاعر لجأ الى الابتداء بأسلوب النهي ليمنح النص كثافة دلالية وعاطفية للمقطوعة، إضافة لألفاظ (يتقلب، الثعلب، أعجب، أخاف) والجناس التام في البيت الأول (الزمان) والاشتقاقي (تقلبا–يتقلب) و(تخافني–أخافني) كل هذا صور استقرار القلق في قلب الشاعر وذهنه واعطى المعنى كثافة كما أنَّ تكرار صوت النون مع التنوين خمسة عشر مرة أوحى بأنين عميق في روحه وكأنَّه يئن من ألمه وحزنه جراء ما أصابه ويعبر عن قلقه، فيما حققت لفظة (أعجوبة) نقرة وكأنَّها المجهول المنتظر الذي يقلقه ولذلك هو يدعو إلى الصبر استعداداً لها.

لقد عاش هذه الحياة المريرة ايضاً الشاعر الوزير ابن شهيد فصور قلقه من أيام السياسة على إنَّها تتلاعب به، فتسعده تارة وتنغص عيشه تارة أخرى، حين قال[3]:

ألا إنَّــها الأيــامُ تَلعَبُ بِالفَتى نَحُـوسٌ تَهَـادى تَـارةً وَسَعُودُ

وَمَا كُنتَ ذا أيدٍ فَيَذعِنُ ذو قِوى مِن الدَّهرِ مُبدٍ صَرفَه وَمُعِيدُ

---

* هو جعفر بن عثمان بن نصر كنيته أبو الحسن ولقبه المصحفي، كان سياسياً وأدبياً، فقد كان حاجب الخلفة هشام المؤيد، واستطاع المنصور بن ابي عامر أن يصرفه عن الحجابة حتى أنفرد بها، فنكبه واستأصل أمواله وأموال اسرته، وسجنه حتى مات هناك وقيل إنه قتله هناك. ينظر: ما تبقى من شعر الحاجب المصحفي، محمد محمود يونس، مج: آداب المستنصرية، ع12، 1985م:171-176

(1) ما تبقى من شعر الحاجب المصحفي:189

(2) شعراء العرب المغرب والأندلس، يوسف عطا الطريفي، ص: 325؛ البيان المغرب: 406/2

(3) ديوان ابن شُهيد الأندلسي، جمعه وحققه: يعقوب زكي، راجعه: محمود علي مكي، دار الكاتب العربي، القاهرة، ص: 101

ابتدأ الشاعر بأداة التنبيه (ألا) لجذب انتباه المتلقين، فاستعان بالصورة الاستعارية (تلعب بالفتى) لإبراز قلقه من تلاعب الأيام وأكد المعنى بالطباق بين (نحوس/سعود)، كما إنَّ قافيته المضمومة أعطت عمقاً وقوة لمشاعر القلق المتحكمة به.

ثانياً: القلق من السجن:

يعد السجن من أبرز الأماكن الباعثة للقلق والمحفزة لقرائح الشعراء في التعبير عن آلامهم ومعاناتهم وشكواهم مما يعيشونه وما يمرون به في ذلك المكان، فالسجن هو (مكان ضيق موحش يؤذي النفس ويجعل للحياة لوناً قاتماً يناقض لون الحرية، أما مكانه فتحت الأرض أو الأبراج العالية المنقطعة، رغبةً في قطع السجين عن العالم، وأما شكله فمنيع ووثيق الأغلاق على نزلائه، زيادة في انقطاع السجناء عن العالم وراء القضبان، وخارج جدران السجون) [1] ولذا نجد الكثيرين ممن يخشون دخوله وتجربته فهو تقييد للحرية وبعد عن الأحبة وكسر لروح المرء وجسده، فالشاعر ينتابه قلقان: قلق ما قبل دخول السجن، وقلق بعد دخول السجن، فالقلق الأول متعلق بكرامة الإنسان وتقييد حريته والمكوث فيه وإهانته، أما الثاني متعلق بالتفكير صوب المصير الذي سيؤول إليه من بعد الأحبة والمرض والموت ... فالشاعر عبدالله بن عبد العزيز الربضي* (393هـ) وقع تحت طائلة القلق قبل دخوله السجن لذا حاول الهرب خشية تجربته وعندما فشل في هروبه وقبضوا عليه كتب وهو في السجن الى المنصور بن ابي عامر يستعطفه ويعتذر منه معبراً عن خوفه مما ينتظره على يديه من مصير آملاً في النجاة من السجن وعذابه[2]:

فَرِرتُ فَلَم يُغنِ الفِرارُ، وَمَن يَكن مَعَ اللهِ لايُعجِزهُ في الأرضِ هَارِبُ
وَواللهِ مَا كَانَ الفِرارُ لِحَالَةٍ سِوى حَذرَ المَوتِ الذّي أنا رَاهِبُ
وَلَو إنَّني وُفِقتُ للرُشدِ لَم يَكُن وَلكن أمرُ اللهِ لابُدَّ غَالِبُ
وَقَد قَادَني جَراً إليكَ بِرُمَّتي كَما اجتَرَّ مَيتاً في رُحى الحَربِ سَالِبُ
وَأجمَعَ كُلَّ النَّاسِ إنَّكَ قَاتِلي وَرَرّبتَ ظَنٍ ربَّهُ فِيهِ كَاذِبُ

لم يستفد الشاعر من فراره فالفرار بحد ذاته هو سبب ونتيجة القلق في آنٍ واحد لكن الشاعر قد وقع فيما كان يخشاه ألا وهو السجن، ولكنه الآن قلق من شيء آخر وهو مصيره الذي ينتظره، والحكم الذي سيقع عليه، ومن المدة التي سيقضيها فيه، فهو قلق من الموت خائف من غضب الخليفة وعلى ما يبدو إنَّ الشاعر لشدة قلقه وحبّه للحياة وخوفه من الموت قد لجأ إلى الاستعطاف والاعتذار باسلوب ذليل لايتناسب مع مكانته ومنصبه وبألفاظ معبرة وموحية بمقدار القلق الذي يسيطر عليه كـ(الفرار، هارب، حذر الموت، راهب، ميت، سالب) إضافة للتراكيب في البيت الأخير. فالشاعر أمير ووزير عاش في حرية ونعمة ونفوذ وسعة الأمل ثم انتقل إلى نقيض ذلك من القيد والذل والانكسار لذا نجد اضطراباً في عواطفه ومشاعره بين يأسٍ وأمل وخوف وأمان لكنَّه ظلَّ في خفايا ثنائيات القلق. أما الرمادي فقد صور موكب أسره حين شُدَّ وثاقه، وذكر حزن رفاقه وأهله، ونقل للمتلقي أحساسه بالحزن والألم والقلق من خلال حواره مع عينه وتوسله لها بأن تجود عليه ببعض الدمع علَّه يصبر على ما أصابه [3]، أذ يقول[4]:

فَوَافوا بِنَا الزهرَاءَ في حَالِ خَلّةٍ تُلائِم لاستِيفائِهم في التَوثُّقِ
وَحَولِي مِن أهلِ التَأدُّبِ مَأتَمٌ وَلا جُؤذَرٌ إلاّ بِثَوبٍ مُشَقَقِ
فَلو إنَّ في عَيني الحمَامِ كَرَوضِها وَإن كَان في ألوانهِ غَيرَ مُشفِقِ
وَنَادى حِمَامي مُهجَتي لَتَغَافَلتْ فَهَلاّ أجَابَتْ وَهو عِندي لمُحنَقِ

(1) تجربة السجن في الشعر الأندلسي، رشا عبد الله الخطيب، أبو ظبي، المجمع الثقافي، ط1، 1999م:95

*عبد الله بن عبد العزيز بن أمية بن الحكم الربضي 393هـ، وهو أحد أمراء بني أمية، كان والي طليطلة في عهد هشام المؤيد وأحد وزراءه، اتهم في عهد المنصور بالاشتراك مع عبد الله بن محمد بن المنصور في مؤامرة ضد أبيه ولم تنجح، فهربا الى أن حضى بهما المنصور فقتل أبنه عبد الله، أما عبد الله بن عبد العزيز فقد سجنه في المطبق بعد أن طيف به على جمل وهو مقيد. ينظر: الحلة السيراء، ابن الآبار، تح: حسين مؤنس، ط2، القاهرة، دار المعارف، 1985م، ص:1/218-219؛ محنة شعر السجون والأسر:64

(2) الحلة السيراء:1/218-219؛ محنة شعر السجون والأسر في الأندلس، مهجة أمين الباشا، دار سعد الدين، دمشق، ط1، 2005م، ص:64

(3) ينظر: محنة شعر السجون والأسر في الأندلس: 44

(4) محنة شعر السجون والأسر في الأندلس: 44

أَعَينَيَ إن كَـانتْ لِدَمعـك فَضلَـةٌ   تُثَبِتُ صَبـري سَـاعةً فَتَدَفقي

فَلَو سَاعَدَتْ قَالتْ: أمِن قِلّةِ الأسى   تَبَقّتْ دِموعِي أم مِن البَحرِ تَستَقِي

لجأ الشاعر إلى استعمال القافية المكسورة؛ لتناسبها مع نفسه المحطمة وكبريائه المنكسر، واستعان بحرف الروي القاف وهو حرف شديد يوحي بقوة الموقف عليه والقهر الذي يعانيه، ولهول الموقف الذي يعيشه الشاعر أخذ يشعر بشبح الموت يلاحقه من كل جانب، فيلجأ إلى عينّه ويناديها وكأنَّ لضيق الوقت وثقله عليه ولكون عينه في تلك اللحظات هي أقرب أمل بل الوحيد للتصبر لذا لجأ لمناداتها بـ (همزة النداء). من خلال الصور التي رسمها الشعراء يتجلى للمتلقي ما يشعر به المرء وما يفكر به عندما يساق للسجن، فالشعراء يقلقون من دخول السجن ويتحذرون منه فهو كيد أعداء–في أغلبه كونه سياسي–وفرحة شامت، وكسر كبرياء، وبعدٌ عن الأهل والأصدقاء.

بالرغم من تعدد الأسباب في دخول السجن، إلاّ إنَّ (الصراع السياسي واشتراك الشاعر في الحياة السياسية وتقلباتها، وامتزاج السياسة والشعر في شخصية واحدة، واضطراب حبل الأهواء من حال الى حال في فترات متقاربة)[1] كانت أبرز أسباب دخول السجن في عهد بني أمية إذ كان الحكّام يتسمون بالحكمة والاعتدال ومحاولة كسب الناس، لذا كان الشعراء عند دخولهم السجن يشعرون بالمرارة والألم لافتقادهم إحساس الحرية خارج قضبان السجن فسرعان ما يعتذرون ويستعطفون، ومن ذلك قول يوسف بن هارون الرمادي الذي سجن أيام المستنصر بالله الذي عبر عن قلقه وألمه وخوفه حين قال[2]:

تَـكنّفَـهُ هَمّان: شَجـوٌ وَصبـوةٌ   فَبُـلغ وَاشِيـهِ المُنى وعزولـه

فَإنْ يَستَبنْ في وَجهِهِ همُّ سِجنِهِ   فَقَد غَابَ في الأحشَاءِ عَنكَ دخِيلَه

لَقَد رَاعَني سِجنٌ فَشَطّ وَلَو دَنا   فِي السِّجنِ لَم يَسهُل عَليّ دِخُولَـهُ

يَعِزُ على الوَردِ النَضِير حِلولَه   وَلَم يَـكُ عِنـدَ المُستَهـامِ نُزولَـهُ

فالشاعر قلق من دخوله السجن لكثرة الوشاة والأعداء، وبعده عن أحبائه، لذا نجده يحمل الكثير من الهموم فأتت قافيته بحرف الوصل (الهاء) وكأنَّه يحاول أن يبث ألمه بجر الصوت وأتى بصوت الضّم التي أعطت تضخيماً وتفخيماً للهموم التي تسكن قلبه وتثير قلقه كون أنَّ الشاعر قلق من الحب والوجد إضافة للسجن.

أما في عهد العامريين والفتنة فقد كانت هناك تهم الزندقة والمجون فضلاً عن تهم أخرى ناتجة عن (المؤامرات وسعايات الحساد والوشاة والتنافس على هبات الأمراء، مما يدفع الحساد الى الإيقاع بالشعراء وتوغير صدر الحاكم عليهم، والإلقاء بهم في غياهب السجون فضلاً عن الجرائم الدينية والدنيوية التي توجب إدخال مرتكبها السجن) [3] ولعل من أبرز شعراء هذا العهد الحاجب المصحفي الذي قال[4]:

لي مُـدَة لابُـدَّ أبلغُـهَا   فَإذا انقَضَت أيـامُـها مُـتُّ

لَو قابَلَتني الأُسدُ ضارِيـةً   وَالمَوتُ لَم يَـدنُ لَـمَا خِفتُ

فانظُر لِي وَكُن عَلى حَذَر   فَبِمثلُ حَالِكَ أمس قَد كُنتُ

لقد كان سبب نكبة الشاعر هي المطاولة –أي منافسته لأبي عامر كون كلاهما حاجب–وهذا ما جعل المنصور يسجنه ويسلبه ماله ومال أهله، ويحقد عليه رغم إنَّ المصحفي استعطفه وتذلل له في شعره كثيراً، لكن المنصور حتى لم يرحم كبر سنه وضعفه.

إنَّ شعر السجون شعر انساني صوّر ذلة السجناء وانسحاق كرامتهم، ونقل احاسيسهم وآلامهم، ورسم تقلب عواطفهم من قلق وخوف وأمل ويأس وشوق وعذاب وألم وضعف واستعطاف واستسلام، وهذا بات يقلقهم والقلق سجنٌ داخل سجنٌ أكبر، فهو سجن نفسي

(1) تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة، د. احسان عباس، ط1، دار الثقافة، بيروت،1960م، ص: 78
(2) شعره:103-104؛ محنة شعر السجون والأسر:45
(3) المكان في الشعر الأندلسي من الفتح الى سقوط الخلافة، د. محمد عبيد السبهاني، دار غيداء، ط1، 2013م، ص: 121
(4) ما تبقى من شعر الحاجب المصحفي، ص:179

داخل سجن مكاني ضيق، وبتقلب مشاعرهم تنوعت اغراضهم وتعددت مضامين اشعارهم، فهم تارة يعبرون عن شوقهم وحنينهم لأهلهم وأحبتهم، فكانت المرأة بكل صورها (أماً أو زوجة أو حبيبة حاضرة في أشعار السجناء، فهي بمثابة الشاطئ الذي يلقي عليه همومه ليرتاح، ومناجاتها والحديث إليها في أشعارهم كان يبعث في نفوسهم الراحة والأمل) [1] ومن هؤلاء الشعراء الشاعر الرمادي الذي شعر بقدوم محبوبه، فيسارع للباب مستبشراً لكن الحارس يقف حائلاً بينهما، فتزداد قسوة السجن عليه[2]:

وَأقبَلنَ مِن نَحو الحَبِيبِ كَأنَّما تَحَاشَدَ نحوي جِفنُهُ وَنصُولُه
دَعُوني أشِمُ بِالبَابِ بَرقَ أحِبتِي قِواماً، فَلَم يَسمَح بِذَاكَ وَكِيلَه
يَعمُّ فَلا يَألو حِصَاراً لَعلهُ سَيودي، فَيودى بثَّهُ وَأليلَهُ*
لَقَد رَاعَني سِجني فَشَطَّ وَلو دَنَا مِن السِّجنِ لَم يَسهل عليّ دخُولَهُ

فقد أوحت لفظة (راعني) في البيت الأخير وفضحت عن قلقه الدّفين ال1ي كان يخشى مجهوله، ويناجي الشاعر ابن شهيد حبيبته، بعد أن فرق بينهما الزمن، وأظهر لوعة شوقه وحزنه وعبر عن ألمه من خلال محاورته للحمام، إذ قال[3]:

وَقُلتُ لِصِدَاحِ الحَمَامِ وَقَد بَكَى عَلى القَصرِ إلفا وَالدِّموع تَجُود
وَمَا زَالَ يُبكِيني وَأبكِيه جَاهِداً وَلِلشّوقِ مِن دُونِ الضِّلوعِ وِقُود
إلى أن بَكَى الجِدَار مِن طُولِ شَجوِنَا وَأجهَشَ بَابٌ جَانِباهُ حَدِيد
تَقُول التي مِن بيتها كَفَّ مَركَبي أقَرِيبُكَ دانٍ أم نَواكَ بَعِيد
فَقُلتُ لَهَا: أمري إلى مَن سَمَتْ بِهِ إلى المَجدِ آباءٌ لَهُ وجِدُود

فالمرأة هي جزء من ماضيه الجميل الذي يلجأ اليه لينقذه من كابوس الحاضر المرعب، فعندما يكون الحاضر قيد وأسر ومذلة وانكسار يعيش الشاعر في أحلام الماضي حيث طيف الأحبة وخيال القوة كالمصحفي الذي تذكر أيامه اللاهية العابثة ويتحسر عليها إذ يقول[4]:

فَلله أيامٌ مَضَت لسَبيلِها فَإني لا أنسى لَهَا أبَداً ذِكرا
تَجافت بِها عَنَّا الحَوَادِث بُرهة وَأبدَت لَنا مِنها الطلاقةُ والبُشرى
لَيَالي لَم يَدرِ الزَّمَانُ مَكانَنَا وَلا نَظرَت مِنَّا حَوَادِثه شَزرا

فالشاعر تحسر وشعر بالأسى على أيامه التي مضت ولن تعود وبقت مجرد ذكرى يهرب إليها كلما أشتد عليه قلق الحاضر ومجهول المستقبل، فالتذكر بعد دخول السجن لأيام القوة والمجد يحمل في ثناياه ثنائيات تبرز قلق الشاعر، فهو بين ثنائية الحاضر/ الماضي، القوة/الذل، كابوس/حلم.

وقد يتمكن اليأس من بعض الشعراء فيلجأون الى تصوير معاناتهم ومأساتهم وتصوير تقلب الزمن عليهم وتحولهم من حال الى آخر كابن شُهيد الذي طالته يد الفتنة وزج به في السجن على يد يحيى بن علي بن حمود الذي حكم قرطبة ونكب ابن شهيد لاتهامه بالميل إلى الأمويين [5] وفي ذلك قال ابن شهيد معتذراً شاكياً سعي الوشاة والحساد[6]:

فَمَنْ مُبَلِغُ الفتيانِ أنيَ بعدهمْ مُقيمٌ بدار الظالمينَ، طَرِيدُ
مُقيمٌ بدارٍ ساكنوها من الأذَى قيامٌ على جمر الحِمامِ قُعودُ

(1) تجربة السجن في الشعر الأندلسي، رشا عبد الله الخطيب، منشورات المجمع الثقافي، ابوظبي، ط1، 1990م، ص: 101
(2) محنة شعر السجون والأسر في الأندلس: 45
*أليله: أنينه
(3) ديوان ابن شهيد 44/43
(4) ماتبقى من شعر الحاجب المصحفي، ص: 184
(5) ينظر: محنة شعر السجون والأسر في الأندلس: 45
(6) ديوانه: 100-101؛ الحلة: 2/46-47

وما اهتزَّ بابُ السجن إلاّ تفطَّرتْ قِلوبٌ لنا خوفَ الردى وكبودُ
ولستُ بذي قيدٍ يرنُّ وإنما على اللحظِ من سخطِ الأمامِ قيود

صوّر الشاعر وضعه وصحبه في السجن وحال الخوف والرعب الذي يعانوه في كل لحظة ومع كل صوت، فهم خائفون مما هو أسوأ من السجن والعذاب خائفون من الموت، فلجأ الشاعر الى استخدم نمطين من أسلوب الاستثناء الأول (ما + الاّ) في البيت الثالث والثاني استخدم (انما) وفي كلا النمطين نجد الشاعر يحاول أن يحصر سبب قلقه وخوفه كما إن الألفاظ التي في النص ساهمت في ابراز هذا الانفعال المبالغ لدى الشاعر كـ(الأذى، الحِمام، تفطرت، خوف، ردى، سخط، قيود).

وصور الجزيري معاناته أيضاً، واستعان بحرف الروي الراء وهو حرف تكراري يضفي على القافية طابع القوة والتأكيد والترجيع، إذ قال[1]:

في رَأسِ أجردَ شَاهِقٍ عَالي الذُّرا مَا بَعده لِموحِّدٍ مِن مَعصِرِ
يَأوي إليهِ كُلَّ أعورَ نَاعِبٍ وَتَهبُّ فِيهِ كلُّ رِيحٍ صَرصَرِ
وَيَكادُ مَن يَرقى إليهِ مَرةً في عُمرِهِ يَشكو انقِطَاعَ الأبهَرِ
وَتَخَالُ مَعمُورَ المَنَازِلِ حَولَهُ ضِيقاً واظلاماً مَلاحِدَ مَقبَرِ

أقتبس الشاعر من الآية القرآنية "وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ "(الحاقة:6). والآية "إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ"(فصلت: 16) ليستعين بها في تصوير معاناته في المعتقل وليبين إنَّ أيامه هناك أيام نحسٍ وقلق (فقوله (ريح صرصر) سيقف الشاعر على وصف السجن والريح التي تهب داخله ريح ليس فيها خير، وإنما هي مؤذية تحمل معها الشر،لأن الريح الصرصر لم تأت في القرآن الكريم في غير معنى الهلاك والنَحس أي ايام العقاب الذي يرسله الله على الكافرين)[2] فهذه الريح وما تحمله هي المجهول القادم الذي يخشاه الشاعر وليست تشاؤم. كما استعان بالصورة (انقطاع الأبهر) كناية عن الموت ودلالة لمدى ارتفاعه وانحداره، والصورة التشبيهية في البيت الأخير حيث شبه المنازل بالقبور لضيقها والظلمة التي فيها لا الضيق المكاني فقط بل الضيق النفسي ايضاً.

أما ابن حزم فقد صوّر حاله من قلق وأرق وخوف على أهله بغيابه عنهم وما يعانوه ببعده، يقول[3]:

مُسَهّد القَلبِ في خَدّيه أدمعُهُ قَد طَالمَا شرقتُ بالوَجدِ أضلعُهُ
داني الهمُومِ بَعِيدُ الدَّارِ نَازِحُها رَجعُ الأنينُ سَكِيب الدّمع مفزعه
كَم فِكرةٍ داهَمَتهُ في مَسارِحها تَسقِيهِ سُماً نَقِيعاً بَاتَ يَجرعَهُ
ذِكرى أفيرَاخَهُ في كَلِّ ناحيةٍ تُوحي الى القلب أسراراً تقطِعَهُ

يبدو إنَّ قلق الشاعر على أهله أكبر وأعمق من قلقه وخوفه على حاله ومصيره، فهو قد بدأ بوصف نفسه الأرقة والمحترقة حب وشوق ووجد وقلق على أهله من خلال الألفاظ (أدمع، الأنين، مفزعه، داهمته، سماً، تقطعه...) التي أعطت بعداً دلالياً وعمقاً نفسياً لما يعانيه، ورسم التمزق العاطفي والنفسي والفكري الذي يعيشه من خلال الطباق في البيت الثاني (داني/ بعيد) وأكد هذا الإحساس بالاستفهام المجازي (كم فكرةٍ داهمته...؟) فهو عنى كثرة الأفكار التي تتلاعب به تفاجئه فتأرقه وتقلقه. ثم وصف حاله راسماً أنينه وشكواه وقلقه، حين قال[4]:

تَنَاهَبتْ نُوبُ الدُّنيا مَحَاسِنهُ فالضَّيمُ مَلبَسهُ والسِّجنُ مَوضِعهُ

(1) محنة شعر السجون والأسر: 75
(2) المرجعيات الدينية للصورة الحسية في شعر السجون الأندلسي، أسماء بدر العوادي وقيس حمزة الخفاجي، مجلة جامعة بابل/ العلوم الانسانية، مج:22،ع6، 2014م، ص:3
(3) ديوان ابن حزم الأندلسي، جمع وتحقيق: عبد العزيز إبراهيم، دار صادر، بيروت، ط1، 2010م، ص:100-101
(4) ديوانه: 101

يَشكو إلى القَيـدِ مَا يَلـقاهُ مِن أَلَمٍ فَبِـالأنِـينِ لَدى شَكواهُ يـرجِـعــهُ
قَد طَالَ في هَاوِياتِ السِّجنِ محبَسَهُ وَانشَتَّ مِن شغلهِ مَا كَانَ يجمَعَهُ
وَا طُـوْلَ شَوقاهُ مَا جَدَّ البُعاد بِهِم إليـهم مُـذ سَعُـوا لِلبَينِ أفضَعَـهُ

فالشاعر بعد البعد والفراق وطول الحبس لم يجد شيئاً يخفف عليه ألمه، فألتجأ للقيد يشكوه ويبثه أنينه لكن حتى القيد لم ينفع فلم يستطع سوى التحسر (واطول شوقاه) وإظهار شوقه الحارق لأهله. بهذا البحر الذي يتميز بأنه (قريب من الطويل، ولكنه لا يتسع لأغراض كثيرة مثله، ولو أنه يُفضل عليه من حيث الرقة)[1] بث الشاعر حزنه وألمه المشوب بالقلق.

إن حياة السجن لاتعد حياة، فهي ألم وقلق ومعاناة وفراق ومذلة، لذا حين يدّب الضعف واليأس في نفس الشاعر المسجون (وحين تضيق السبل بالذات خلف القضبان، فإنها تلجأ الى الآخر / الوزير أو الأمير أو السجان في مدح واستعطاف وثناء، عسى أن ينفع ذلك بفرج أو عفو)[2] ويبدو أن هذا هو حال أبو الحسن جعفر المصحفي الذي طال به الأمد في السجن فراح ينظم إلى المنصور بن عامر أبياتاً يصف بها حاله ويلتمس عفوه، ومما قال [3]:

عَـفَا الله عَنـكَ ألاَّ رَحمَـةً تَجُـودُ بِعَفـوِكَ إن أبعَـدَا
لِـئَن جَـلَّ ذَنبٌ وَلَم اعتَمِده فَـأنتَ أجَـلُ وَأعــلى يَـدَا
أَلَم تَرَ عَبـداً عَـدَا طَـورَه وَمَولى عَفَا وَرَشيداً هَدَى
وَمُفـسِد أمـرٍ تَـلا فَيتَــه فَـعَادَ فَـأصـلَحَ مَـا أفسَدا
أقِلَـني أقـالك مَن لَم يَـزَل يَقِيكَ وَيَصرفَ عَنكَ الرَّدى

لقد وصل المصحفي الى قمة الانكسار والخضوع والاستسلام بينتها لفظة (أقلني) وهي تدل قاده إليه قلقه مما سيؤول إليه أمره، فاستعطف وترجى بدافع الاَّ يمكث في السجن فيأكله القلق، فالشاعر قد وقع فيما يخشاه دخول السجن، ولكنه قلق من البقاء فيه لذا يمثل الاستعطاف حبل الأمل البسيط في النجاة، وهذا الأمل هو مصدر القلق لأن هناك ثنائية استعطاف/هجاء أي أمل/يأس وبين هذه الثنائيات يتأرجح الشاعر قلقاً، لذا عندما وجد هذه الأبيات لم تنفع، أرسل أبيات أخرى آملاً أن تثير هذه الأبيات عطف المنصور وتلين قلبه[4]:

هِبـني أسـأتُ فـأين الفَضـلُ وَالـكَرمُ إذ قَـادَني نَحـوِك الإذعـانُ وَالنَدمُ
يَـا خَـير مَـن مُـدت الأيـدي لَــهُ أما تـرثي لشيخٍ رَمَـاه عِنـدكَ القَلَم
بَالغتَ في السخط فاصفح صفح مقتدر إن الملوك إذا ما استرحموا رحموا

فيكاد كل استعطاف يخبئ تحت جناحيه قلق اللاوعي تفضحه فيه توسلاته وانكساره. فكان الاستعطاف أكثر الأغراض الشعرية شيوعاً في شعر السجون ولم تكن هناك أشعار تعبر عن الصمود والثبات على الموقف مما يعني إنَّ أغلب من دخل السجن من الشعراء كان لأسباب سياسية ونزاعات شخصية ومصالح فردية ولم تكن هناك مبادئ أو مواقف معبرة عن فكر أو اتجاه سياسي أو اجتماعي لذا مالوا للاستعطاف بمجرد إن كسر السجن شوكتهم[5].

(إنَّ مثل هذه الأشعار تتبع الحالة النفسية للذات تجاه الآخر، فحين لا تجد الذات من يستجيب لها، وهي تعاني ما تعاني في داخل السجن تنقلب هذا الانقلاب لتستعمل شعراً مخالفاً لما جَرت عليه)[6]

(1) فن التقطيع والقافية، صفاء خلوصي:68
(2) الصورة الحسية في شعر السجون، أسماء بدر محمد العوادي، بإشراف: د. قيس حمزة الخفاجي، رسالة ماجستير، كلية التربية للعلوم الانسانية، جامعة بابل، 2014م، ص: 11
(3) ماتبقى من شعر الحاجب المصحفي، ص: 181؛ البيان المغرب، 268/3
(4) ما تبقى من شعر الحاجب المصحفي، ص: 169
(5) ينظر: تجربة السجن في الأندلس، رشا عبد الله الخطيب، ص: 65-66
(6) الصورة الحسية في شعر السجون الأندلسي، أسماء بدر محمد العوادي:117

لقد تعددت موضوعات هذا الشعر وتأرجحت بتأرجح نفسية الشاعر السجين وبذا كان شعر السجون الشعر الذي صور لنا (نفسية الشاعر السجين قلقة حائرة تتأرجح بين تيارات نفسية متضادة فهي مرة ثائرة أبية ومرة خانعة ذليلة)[1]

ثالثاً: القلق من الحروب:

تغلغل الشعر في الأندلس بكل النواحي، فصار يواكب الأحداث ويسير جنباً الى جنب معها للتعبير عن خلجات النفوس وكوامنها، ومن هذه الأحداث هي الحروب التي تقلق الجميع الشجاع والرعديد، لأن الحرب ليس فيها رابح، قد يكون انتصاراً عسكرياً لكنه في كل الأحوال تترك أثراً نفسياً على الناس، ومن هنا يأتي القلق من الحروب على نمطان، الأول: القلق من الحرب: وهذا قبل أن تشتعل إذ يكون قلقاً مما ستأول اليه الحرب من انتصار أو خسارة، والثاني: بعد اشتعالها فنجدهم يقلقون من القتل والتشريد والخسائر والخراب والجوع والاحتلال...، والحروب التي عاشها المجتمع الأندلسي سواء أكانت الخارجية أم الداخلية كانت كثيرة ومثيرة لكل هذه المشاعر والاضطرابات، فالخارجية تمثلت بـ(تكالب دول الشمال الإسبانية عليها لضمها إليهم، ولم يحدث هذا في عهد الولاة أو العصر الأموي إذ كان أمر العرب فيها مقبل وشملهم جميع، وقد حدث بعد إن ضعف امرهم وتفرق جمعهم) [2] كواقعة سليط التي تكلم عنها عباس بن فرناس[3]:

وَمُختَلِف الأصوَات مُؤتَلِف الزَّحفِ لَهُوم لِفَلاعِيل القَنَابل مُلتَفِ
إذا أوقَعتَ فِيها لِصوَارِم خِلتَها بِرُوقاً تَتَرَاءى فِي الجِهام وَتَستَخفي
كَأنَّ ذَرَى الاعلامِ فِي مَيَلانِها قَرَاقِيرَ في يَمٍ عَجِزنَ عَنِ القَذفِ
وَإن طَحِنت أرجَاؤها كَانَ قُطبُها حجى ملك ندب شمائِلِهِ عَف

إن الشاعر يصف شجاعة المقاتلين وقوتهم في مقاتلة الأسبان، والى جانب ذلك يصور فزعه وخوفه من المعركة وما نتج عنها من خراب ودمار ودماء[4] فلفظة (طحنت) هي النتيجة الحتمية للخصمين بغض النظر عمّن يطحن الآخر وهذا قلق الرؤية للحروب ومنظرها وجعجعة السلاح فيها.

أما الأحداث داخلية نتجت من الصراعات السياسية والحركات المعادية للسلطة، فقد كانت كثيرة والشعر الذي نتج عنها كان غزيراً ومن أشهرها وقعة الربض، التي تكلم عنها الحكم الربضي نفسه مسوغاً ما قام به من قتل وتشريد، إذ يقول[5]:

وَلَـمَا تَـسَاقَينَا سِجَـالَ حِـرُوبِنـا سَقَيتُهُم سُمّاً مِن المَـوتِ نَـاقِعا
وَهَل زِدتُ أن وَفَيتُهُم صَاعَ قَرضِهِم فَـوَافُـوا مَنَـايـا قَدَّرَت وَمَصَارِعـا
فَهـاكَ بِـلادِي إنَّـني قَد تَرَكتُـهـا مِهَاداً وَلَم أترُك عَلَيـهَا مُـنَازِعـا

قد تبدو هذه الأبيات أبيات فخر بقوة جيشه وعزيمته وبما فعله بأعدائه، ولكنها تحمل في داخلها قلقاً وخوفاً كبيراً تجلى من خلال التبرير الذي قدمه، إذ يقول إنَّ السبب وراء ذلك إنه رَدَّ لهم أفعالهم وعاقبهم على أخطائهم التي ارتكبوها فسقاهم بانتصاراته عليهم سماً ناقِعاً وهذا ما يبدو من خلال استفهامه المجازي فهو يحاول أن يعادل بينه وبين ما فعلوه، كما إنَّ لفظة (منازعا) تصور حالة الحاكم فيما يراه من كل ثائر ومعارض على إنَّه طامع فيأت القلق سبباً لنشوب الدمار، هذا التبرير والرؤية هو نتاج قلقه على سلطانه، فالحكم معروف عنه إنه يتبع سياسة القوة لكنه خائف أن يكون فعله هذا يؤثر عليه فيخسر ملكه ولذا لجأ في البيت الأخير الى إعطاء نتيجة سياسته الحازمة.

(1) شعر السجون والأسر في الأدب العربي، د.هادي الحمداني، مجلة كلية الآداب، عد13، 1970م، ص: 563، نقلاً عن: المكان في الشعر الأندلسي، محمد عبيد السبهاني، ص:121
(2) الغربة والحنين في الشعر الأندلسي، أ. د أحمد حاجم الربيعي، الدار العربية للموسوعات، بيروت، ط1، 2013م، ص: 103.
(3) العقد الفريد، شهاب الدين أحمد بن عبد ربه، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1940م، ص: 495/4، نقلاً عن: اتجاهات الشعر الأندلسي الى نهاية القرن الثالث الهجري، د. نافع محمود، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط1، 1990م، ص: 149-150.
(4) ينظر: اتجاهات الشعر الأندلسي الى نهاية القرن الثالث الهجري، د. نافع محمود، ص: 150
(5) تاريخ الأدب العربي، عصر سيادة قرطبة، إحسان عباس، ص:96-97

وبالرغم من إن الشاعر العربي شاعر مفتخر بفروسيته وفروسية قومه وقوتهم وعزمهم في الحروب التي يخوضوها إلاّ إنَّ العربي منذ القدم قد أدرك حقيقة الحرب وعرف وجهها الحقيقي فصورة الحرب سبق وتوصل لها العرب في العصر الجاهلي ولعل أول من يطلعنا على الوجه الحقيقي للحرب هو أمروٗ القيس، إذ يقول عن ذلك(1):

الحــرب أولُ مــا تكــون فتيــةً تسعى بزينتــها لــكُلِّ جهولِ

حتى إذا استَعرت وشب ضرامها عادت عجوزاً غير ذات خليلِ

شمطـاء جـزت رأسـها وتنـكـرت مـكـروهــةً للـشـم والتقـبيـلِ

فالشاعر عبر من خلال تجربته الطويلة في الحرب ووصفها بأنّها تتكرت فهي لا تعرف أحداً فالجميع في محرابها ينوشه أوارها أذا أشتد، فرسم لها صورة قبيحة عندما شبه الإقدام عليها بالفتاة الجميلة حتى إذا بلغت مداها وشب أوارها كشفت عن حقيقتها فإذا هي عجوز مشؤومة قبيحة المنظر مكروهة الشم والتقبيل، فهي كالفتاة الجميلة في أولها ثم تهرم بالخسائر والألم والمعاناة التي تنتج عنها، وشعراء الأندلس ايضاً تنبهوا لهذه الصورة البشعة وبثوا حقيقة الحروب في أشعارهم وفي ذلك يقول يحي بن هذيل الأندلسي(2):

وَسَخِيـةٍ تُعطِيكَ أقصَى جَهْدَهَا وَبِفعلِ خَـادِمِها الخَؤون تَلُومَها

قَد أهْمِلتْ فِي حَلبةٍ مِن خَلقِها فَإذا جَرَتْ رفعَ العَجَاجَ هَشِمُهَا

وَكَأنَّـما تُعْنَى لِيدرِكَ بَعضُـهَا بَعضاً فَلَيسَ يَخُـونها تَـدوِيمُـها

تلاعب الشاعر بالألفاظ في إبراز قلقه من الحرب فالألفاظ (سخية، الخؤون، تلومها، هَشِمها) أعطت ايحاءً وعمقاً دلالياً وكثافة عاطفية من خلاله أظهر كرم الحرب من خسائر وألم ودمار ولا سيما الخسائر البشرية، كما إنَّ ألف الاطلاق قد أوحت بسرعة اشتعالها وانتشارها فهي كالنيران التي بمجرد ما أنْ تشتعل لا تتوقف حتى تأكل كل شيء، وقد أتى البحر الكامل بتفعيلاته المتطابقة متناسباً في شدة إيقاعه مع الحرب وكأنَّ المتلقي يسمع صوت طبول الحرب فتثير القلق في نفسه كما هو في نفس الشاعر.

وقد وصف ابن عبد ربه الحرب وصورها بأنَّها أرضٌ مهما كانت واسعة تضيق بالقتل والموت، أرض لا ينجو فيها أحد، لذا هي خيار قاس يلجا إليه المرء عند الضرورة لإدراكه ان (أولها شكوى وأوسطها نجوى وآخرها بلوى) (3)، إذ يقول (4):

وَمُعــتَرَكٍ تَهــزُّ بِـهِ المَنَـايا ذِكُورَ الهِند في أيدي ذُكورِ

لَوامِعُ يُبصرُ الأعمى سَنَاها وَيَعمى دُونَها طَرفُ البَصِيرِ

وَخَافِقة الذّوَائِبِ قَـد أنافَـتْ عَلى حَمرَاء ذَاتِ شباً طَرِيرِ

تَحـــومُ حَولَها عُقبَانُ مَـوتٍ تَخَطّفتْ القُلوبَ مِن الصّدورِ

بِيـــومٍ رَاحَ فِي سِربَالِ لَيَـــلٍ فَمَا عُرِفَ الأصِيلُ مِنَ البُكُورِ

وَعَينُ الشّمسِ تَرنُو فِي قِتَـامٍ رُنُـوَّ البكرِ من بَين الســتُّورِ

فَكَم قَصّرَتْ مِن عُمرٍ طَوِيلٍ بِـهِ، وَأطَلَتَ من عُمرٍ قَصِـيرِ

استفاد الشاعر من الصور الكثيرة والكثيفة في تركيز المعنى وإبراز اضطرابه وقلقه، فهو قد وصف المعترك التي هي أرض لانميز فيها بين الليل والنهار لأن الشمس (ترنو في قتام) كناية عن اختفاء الشمس وتسترها خلف غبار المعركة، كما وصف الأسلحة من سيوف ورماح فهي لقوتها يبصرها الأعمى ويخشاها البصير، ولجأ للألفاظ (تهز، منايا، خافقة، موت...) والاستفهام المجازي في البيت الأخير الذي خرج لدلالة الكثرة، زد الى بحر القصيدة بحر الوافر الذي يمتاز بتدفقه وتلاحق أجزائه، وسرعة نغماته التي تتناسب

(1) ديوان أمرؤ القيس، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، ط4، مصر، ص: ٣٥٣ والأبيات منسوبة إلى الشاعر الفارس عمرو بن معد يكرب، ينظر ديوانه: ١٥٦

(2) شعر يحي بن هذيل الأندلسي، د. حمدي محمود منصور، دار الفكر، عمان، 2010م،ط1، ص: 136

(3) العقد الفريد ٩٤/١، كما ساق صاحب العقد الفريد اقوالاً واشعاراً كثيرة تشير الى صورة الحرب وبشاعتها، ينظر:٩٦-٩٤

(4) ديوان ابن عبد ربه، جمعه وحققه: محمد رضوان الداية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1979م، ص:76-77

مع حركة النص، كل هذا ليعطي مشهداً حياً للحرب وبشاعتها، فوصف الحرب في الشعر حتى وإنْ بَدت متفاعلة ألفاظ الوصف والبطولة والشجاعة لكنها في جانب من جوانبها صورة دموية يرسمها الشاعر افصاحاً عن قلق كامن من اشتعالها لذلك فكل وصف للحرب هو وصف للقلق وإن أظهرت نتائجها بطولة أو انتصار، فتحشيد معاني البطولة هو خوف من مجهول يخشاه فيعظم ضده.

إنَّ مثل هذه الصور الدموية والخراب هي السبب في الخوف والقلق من الحروب وهذا ما عاناه الأندلسيون في عصر الفتنة القرطبية –ولا سيما إنهم كانوا مجبورين على اتخاذ هذا الخيار–فعبّر الشعراء عن كل ذلك مصورين القلق من القادم المجهول بعد إن خسروا ديارهم وقد كانت صورهم (صادقة صدقاً أكيداً لأن قائلي هذه الأشعار قالوا وقلوبهم تحترق دماً وأسىً ودِيناً لضياع هذه الثغور) [1] فصار الشعراء يعيشون بين ماضٍ زاهٍ وحاضرٍ مرير ومن ذلك قول أحدهم [2]:

ابـــكِ عَلى قُرطـبـةَ الـزِّين فَقَد دَهَتهَا نَظرَةُ العَـينِ
انظرهَا الدَّهـــرُ بأســـلافِهِ ثُم تَقَاضى جُملَـة الـدِّينِ
كَانَت عَلى الغَايَةِ مِن حُسنِهَا وَعَيشُهَا المُستَعذِب الليّنِ
فَانعَكَسَ الأمــرُ فَمَا أن تَرى بِهَا سِــرُوراً بَيــنَ اثنَيـنِ
فَاغدُ وَوَدِعها وَسِـر سَـــالِماً إن كُنتَ أزمَعتَ عَلى البَينِ

كانت نتيجة الحروب المتواصلة إنَّها قضت على المعالم العمرانية للبلاد فعمَّ الخراب والدمار وتحولت المدينة الزاهية الى خرائب مهجورة هرب منها ساكنيها حذر الموت فـ(لم تكن قرطبة في ذلك العهد مدينة كسائر المدن، ولم تكن محنتها بالشيء الذي يُستهان به، فلا غرابة أن يُرثيها الشعراء الكثيرون ويندبون ويبكون على عصورها الزاهية)[3] كل هذا صوَّره الشاعر بأبياته وما نلاحظه أنَّه أكتفى بالبكاء والشكوى لما أصاب المدينة دون أن يستعين بأي ألفاظ دالة على القتال والحرب وهذا يعني أن الشاعر ليس قلقاً مما أصابها فما حدث ما قد حدث إلاَّ إنَّه قلق مما بعد ذلك، قلق من استمرار هذه الهزائم في مدن أخرى، قلق مما سيواجهه أهل المدينة بعد إن غادروها من ألم وذل وعدم استقرار، كما رثى ابن شهيد قرطبة وبكاها على ما أصابها من دمار وخراب، فبعد إن كانت جنة وبعد إن كانت في عيشة رخاء وصفاء وهناء باتت خراباً خالية من أهلها التي غادروها، يقول[4]:

فَلِـمِثلِ قُـرطبـةٍ يَقُلُّ بُكَاء مَن يَبكـي بِعَـينٍ دَمعُـهَا مَتَفَجِّـرُ
دَارٌ أدارَ اللـــهُ عَثرَةُ أهلـهَا فَتَبَربَرُوا وَتَغَــرّبُوا وَتَمَــصّرُوا
في كُـلِ نــاحِيـةٍ فَرِيقٌ مِنـهُم مُتَفَطِـر لِفِــرَاقُـهَا مُتَحــيـرُ
عَهدِي بِها وَالشّمل فِيها جَامِعٌ مِن أهلِها وَالعَيشُ فِيهَا أخضَرُ
وَالقَوم قَد أمِنـوا تَغَيُر حُسنَـهَا فَتَـعَمَمُوا بِجَـمَلِـها وَتَـــأزَرُوا
يَا جَنَّـةً عَصَفَتْ بِهـا وَبِأهلِهَا رِيــحُ النّــوى فَتَدَمَرَت وَتَدَمَرُوا

الخاتمة

تناول هذا البحث (أنماط القلق السياسي في الشعر الأندلسي من الفتح الى سقوط الخلافة 92هـ–422هـ) هذه الحقبة على اعتبار صاحبتها الكثير من الاضطرابات والخلافات السياسية والحروب واللا استقرار فتركت هذه الظروف آثارها على الإنسان الأندلسي ووسمته بالقلق والضياع والخوف، اضافةً لقلقه الأول القلق من المجهول كون الأندلس أرض جديدة ووطنُ بديل لا يعرف عنه شيئاً، وقد توصل هذا البحث الى النتائج التالية:

(1) الرثاء في الشعر العربي أو جراحات القلوب، د. محمد حسن أبو ناجي، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت ، ط2، 1402هـ، ص:282
(2) البيان المغرب: 110/3
(3) الفتن والحروب وأثرها في الشعر الأندلسي (من سقوط الخلافة الى سقوط غرناطة)، د. جمعة شيخة: 37/1
(4) ديوان ابن شهيد، ص: 65.

- المجتمع الأندلسي كان مُحاصَراً بمشاعر الخوف والقلق سواءٌ أكان قلقاً إيجابياً يعمل كمنبه للإنسان ليمنعه من السقوط في الخطر ويحميه كما هو الحال في قلقهم من دخول السجن، أو دخول الحروب، أم قلقاً سلبياً يؤدِّيّ إلى التذلُّل والتخضُّع والانكسار أمام السلطان وربما مواجهة التنكيل والموت على يديه كما هو الحال لدى أصحاب القلق السياسي من الحكام والأمراء ومن سكان البلاط.
- تمثلت أنماط القلق السياسي بثلاث أقسام: القلق من المصير السياسي، وأكثر من عانى منه الشعراء السياسيين ولاسيما الحكام منهم، والقلق من السجن، وكان نمطان قبل دخوله، والآخر بعد دخوله، وقد كانت من أبرز أسباب دخوله الوشاية والحسد السياسي والمطاولة، والقلق من الحروب، وهو ايضاً نمطان قبل اشتعالها والآخر بعد حدوثها ولكل نمط له تجلياته ومحاذيره
- سخر الشعراء كل الأغراض الشعرية في التعبير عن قلقهم وتحقيق غاياتهم فحتى أغراض اللهو كانت تخفي قلقهم المكبوت ويحقق غاياتهم المرجوة
- من الناحية الفنية فقد ناسب الشعراء بين وحدات القلق ودلالات البحور الشعرية قوافيها، وتلونتْ موسيقاهم بمختلف الإيقاعات الداخلية الموحية والمكثفة.
- كانت حرارة العاطفة وقوتُها واضحة وجلية في وحدات القلق من السلطان والخوف من الموت نفسه، ذلك لأن الشعراء خائفون من السلطان قلقون مما ستؤول إليه حالهم فيتوجَّهون إليه وهو يائس من رحمته وعفوه، واثقٌ من بطشه وتنكيله، فتفور نفسُه بالجزع، وتطفحُ مشاعرُهُ بالفقدان،
- ظهور مستوى بياني من الألفاظ المستعملة في شعر السجون الاندلسي، متأثرة بالغرض المشبع بالانكسار والترجي.
- كان الشعر وسيلة جيدة وناجعة في التعبير عن المشاعر والانفعالات والعواطف وفي التصوير السياسي والتاريخي لتلك الحقبة والصوت المسموع في الاستعطاف وطلب العفو والاعتذار.

المصادر والمراجع:

القران الكريم

1) اتجاهات الشعر الأندلسي الى نهاية القرن الثالث الهجري، د. نافع محمود، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1990.
2) الأدب الأندلسي من الفتح الى سقوط الخلافة، أحمد هيكل، دار المعارف، ط9، 1985.
3) الأدب الأندلسي من الفتح الى سقوط غرناطة، منجد مصطفى بهجت، جامعة الموصل، ط1، 1988.
4) البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ابن عذاري المراكشي، تح: ليفي بروفنسال و. د. س. كولان، بيروت، دار الثقافة، 1980م.
5) تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة، د. احسان عباس، ط1، 1960م.
6) تجربة السجن في الشعر الأندلسي، رشا عبد الله الخطيب، أبو ظبي، المجمع الثقافي، ط1، 1999.
7) الحلة السيراء، ابن الآبار، تح: حسين مؤنس، ط2، القاهرة، دار المعارف، 1985م.
8) خصائص الحروف العربية ومعانيها، حسن عباس، منشورات اتحاد الكتاب العرب، 1998م.
9) ديوان ابن عبد ربه، جمعه وحققه: محمد رضوان الداية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1979م.
10) ديوان ابن شُهيد الأندلسي، جمعه وحققه: يعقوب زكي، راجعه: محمود علي مكي، دار الكاتب العربي، القاهرة.
11) ديوان يحيى بن الحكم الغزال، جمعه وحققه وشرحه: محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر، لبنان، ط1، 1992م.
12) الرثاء في الشعر العربي أو جراحات القلوب، د. محمد حسن أبو ناجي، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ط2، 1402هـ،
13) شعر الرمادي يوسف بن هارون، تح: ماهر زهير جرار، ط1، بيروت، المؤسسة العربية، 1980.
14) شعراء العرب المغرب والأندلس، يوسف عطا الطريفي، دار الأهلية، عمان، ط1، 2007م.

15)شعر يحي بن هذيل الأندلسي، د. حمدي محمود منصور، دار الفكر، عمان، 2010م، ط1.
16)ضجيج الشعر الأندلسي، دراسة في أنماط تمرده الموضوعية ومبانيه الفنية، د. محمود شاكر محمود، دار غيداء، الأردن، 2018م، ط1.
17)العقد الفريد، شهاب الدين أحمد بن عبد ربه، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1940م.
18)الغربة والحنين في الشعر الأندلسي، أ. د أحمد حاجم الربيعي، الدار العربية للموسوعات، بيروت، ط1، 2013م.
19)فن التقطيع الشعري والقافية، صفاء خلوصي، مكتبة المثنى، بغداد، 1961م.
20)الفتن والحروب وأثرها في الشعر الأندلسي (من سقوط الخلافة إلى سقوط غرناطة)، د. جمعة شيخة ومحمد الطالبي، المطبعة المغاربية، تونس، 1994م.
21)محنة شعر السجون والأسر في الأندلس، مهجة أمين الباشا، دار سعد الدين، دمشق، ط1، 2005م.
22)المكان في الشعر الأندلسي من الفتح الى سقوط الخلافة، د. محمد عبيد السبهاني، دار غيداء، ط1، 2013م.
23)نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المقري، تح: احسان عباس ، دار صادر، بيروت، 1997م.

الرسائل والأطاريح:

1) شعر حكام الأندلس (دراسة في المضمون والفن)، د. هادي طالب العجيلي، بإشراف: أ.م. د عبد العظيم رهيف السلطاني، أطروحة دكتوراه، جامعة بابل، كلية التربية صفي الدين الحلي، 2009م.
2) الصورة الحسية في شعر السجون، أسماء بدر محمد العوادي، بإشراف: د. قيس حمزة الخفاجي، رسالة ماجستير، كلية التربية للعلوم الانسانية، جامعة بابل، 2014م.

المجلات والدوريات:

1) شعر السجون والأسر في الأدب العربي، د. هادي الحمداني، مجلة كلية الآداب، عد13، 1970م.
2) ما تبقى من شعر الحاجب المصحفي، محمد محمود يونس، مجلة آداب المستنصرية، ع12، 1985م.